

المحاضرة الخامسة

الوقائع الاقتصادية في الدول الاشتراكية بعد الحرب العالمية

أولاً : سياسة رأسمالية الدولة (المرحلة الانتقالية)

مرحلة الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية هي المرحلة التي تجري فيها تصفية الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج الأساسية و القضاء على استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وتحويل الاقتصاد والدولة والثقافة لتتفق مع المبادئ الاشتراكية. وفي هذه المرحلة لا تكون الاشتراكية قد انتهى بناؤها، بل تكون قيد البناء، و لا تكون الرأسمالية قد صفيت تماماً ، بل تكون قيد التصفية والنحول من الاستثمارات الفلاحية الصغيرة إلى الكبيرة في هذه المرحلة وفقاً للاشتراكية وبناء القاعدة المادية والتقنية للاشتراكية، والمرحلة الانتقالية ضرورية لكل بلد يسير في التحول الاشتراكي وبناء الاشتراكية، سواء أكان البلد متطوراً صناعياً أو متأخراً ، كبيراً أم صغيراً، وتبدأ المرحلة الانتقالية مع انتصار الثورة الاشتراكية.

ولقد بدأت عملية بناء الاقتصاد الاشتراكي مع قيام مرحلة الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية، بيد أن المباشرة ببناء الاقتصاد الجديد قد واجه الكثير من المعوقات، وفي مقدمتها ذلك التخلف الذي كان يكتنف الحياة الاقتصادية والاجتماعية لروسيا، إضافة إلى تأزم الوضع السياسي الداخلي والخارجي ، فالتطبيق الرأسمالية إلى جانب القطاع رفضت الاعتراف بالسلطة الاشتراكية الناشئة، واستخدمت كل إمكانياتها المادية والمعنوية من أجل استعادة السلطة من جديد في ظروف تدخل عسكري خارجي من جانب العديد من الدول الأوروبية وفي مقدمتها تلك الدول التي كانت حليفة لروسيا ولنظام الحكم القيصري في الحرب العالمية الأولى، مما أدى إلى قيام وضع اقتصادي بالغ الخطورة تجلّى في قلة المواد الغذائية الضرورية، وعدم انتظام التجارة الداخلية وانخفاض قيمة النقود وهبوط الناتج الصناعي.

فتم اتخاذ عدد من الإجراءات لإنقاذ البلاد من الدمار، منها اقتراح إيقاف الحرب ، وبعض الإجراءات التي تقضي بانتزاع الأرض من الطبقة البرجوازية ووضعها تحت تصرف الفلاحين المعدمين والفقراء، مع إلغاء الملكية الفردية على الأرض، واصطبحت الأرض وما في باطنها من خيرات ملكاً للشعب، فتمكنت الثورة بهذا الإجراء من كسب تأييد الشعب ومساندتهم لها.

وقد جرى بعدها مباشرة بعمليات التأميم، ومنها البنوك التي تعد بمثابة الشريان بالنسبة للهيكل الاقتصادي ثم تجميعها تحت إدارة مصرف الدولة المركزي الذي امتلك حق إصدار النقود الورقية والاحتفاظ بالاحتياطي الذهبي للدولة . وقد جرت التأميمات بصورة تدريجية عام 1918 شملت مصانع التعدين وإنتاج الآلات و المكنات و الأسطول التجاري و أحواض بناء السفن والمواصلات مع تأميم التجارة الخارجية.

ثانيا : سياسة التخطيط الاقتصادي

انتهج الاتحاد السوفيتي أسلوب وضع خطة خماسية , وقد برر المخططون هذا الأسلوب باعتبار أن خمس سنوات كافية من أجل تشييد أكبر المشروعات الصناعية أو مد أطول خطوط السكك الحديدية أو بناء أكبر محطة كهربائية في ظروف بلد مترامي الأطراف.

فتم وضع أول خطة خماسية في الاتحاد السوفيتي للسنوات (1929_1933 ,) وقد حدد الهدف الأساس منها تصفية القطاع الخاص وجعل البنية الهيكلية للاقتصاد السوفيتي وتطورها اللاحق خاضعا لقيادة القطاع الاشتراكي , وذلك بالتركيز على الطرق الحديثة للتصنيع الثقيل والعمل على تشجيع الفلاحين للانخراط في التعاونيات الزراعية , وتم في هذه المرحلة دمج المالكين من الاستثمارات الزراعية الفردية بعضها مع بعض ووضعها على طريق التعاون الاشتراكي , والذي عن طريقه تم تصفية طبقة المزارعين الأغنياء الذين يستغلون عمل الآخرين وذلك بواسطة تأميم وسائل إنتاجهم ووضعها تحت تصرف الحركة التعاونية التي كبرت فيما بعد وانضم إليها أغلب الفلاحين.

ثالثا : سياسة التحول نحو اقتصاد السوق(برنامج إعادة البناء البيروستريكا)

هي برنامج للصالحات الاقتصادية أطلقه رئيس الاتحاد السوفيتي, ميخائيل غورباتشوف وتشير إلى إعادة بناء اقتصاد الاتحاد السوفيتي. صاحبت البيروسترويك سياسة غالسنوست والتي تعني الشفافية. أدت السياستان معًا إلى انهيار الاتحاد السوفيتي وتفككه سنة 1991.

البيروسترويك تعبير خرج به "غورباتشوف" على العالم بشكل عام, وعلى الشعب السوفيتي بوجه خاص - و عده كما أسماه في كتابه الذي أصدره يحمل هذا الاسم - أنه تفكير جديد لبلاده وللعالء, ورأى "غورباتشوف" أن البيروسترويك ضرورة ملحة لتطوير المجتمع , الذي كان يمثل

واحدة من أقوى الدول في العالم، ثم في مرحلة معينة، وبالتحديد في النصف الأخير من السبعينيات، بدأت البلاد تفقد قوة اندفاعها، وتكرر الإخفاق الاقتصادي بصورة أوسع، وبدأت الصعوبات تتراكم والمشاكل تتضاعف، وبدأ في الظهور ما يُسمى بالركود وتباطؤ في النمو الاقتصادي وتدهور في معدلات نمو الدخل القومي. وبدأت بحلول الثمانينيات تحدث فجوة في غير صالح الاتحاد السوفيتي في كفاءة الإنتاج وجودة المنتجات، والتطور العلمي والتكنولوجي، وبينما صواريخه كانت تطير إلى كوكب الزهرة بدقة عالية، كان هناك بشكل خطير على المجال الاجتماعي نمو هابط أثر سلباً.

وخلال الفترة الأولى من وصول ميخائيل غورباتشوف إلى السلطة (1985-1987) تحدث عن تعديل التخطيط المركزي، ولكنه لم يرق بأي تغييرات جذرية حقيقية، بعدها قدم غورباتشوف وفريقه من المستشارين الاقتصاديين إصلاحات أكثر جذرية، عرفت باسم البيريسترويكا أي إعادة الهيكلة.

التعديل الأكثر تأثيراً الذي أدخله غورباتشوف على قطاع الاقتصاد الخارجي سمح للأجانب بالاستثمار في الاتحاد السوفيتي على شكل مشاريع مشتركة مع الوزارات السوفيتية ومع ملتزمي الدولة والتعاونيات، وقد حددت نسبة مشاركة الأجانب بما لا يزيد عن 49 بالمائة واشترط أن يشغل مواطنون سوفيت مواقع الرئاسة والإدارة العامة لهذه المشاريع.

ولكن تذر شركاء غربيين محتملين من هذه الشروط دفع الحكومة لمراجعة الشروط والسماح بملكية أغلبية المشروع والسيطرة لجهات أجنبية.

لم تفعل التغييرات الاقتصادية التي أدخلها غورباتشوف الكثير لإعادة تنشيط اقتصاد الدولة المتلبد في نهاية الثمانيات. قللت الإصلاحات من المركزية إلى حد ما، لكن بقي التحكم بالأسعار قائماً ما، وكذلك عدم إمكانية تحويل الروبل، وبقيت معظم سيطرة الحكومة على وسائل الإنتاج. بحلول عام 1990 كانت الحكومة قد خسرت السيطرة على الظروف الاقتصادية، فازدادت نفقات الدولة بحدة بسبب ازدياد عدد المقاولات الخاسرة التي احتاجت لمعونة الدولة واستمر دعم البضائع للمستهلكين. وانخفضت عائدات الضرائب بسبب امتناع سلطات الجمهوريات والسلطات المحلية عن تقديمها للحكومة المركزية وبالتالي بدل أن تؤدي سياسات اللامركزية التي قدمها

غورباتشوف إلى سياسة النظام الاقتصادي, خلقت هذه السياسات معوقات إنتاجية جديدة . ولهذا فان هناك من يرى بان سياسة الإصلاح التي اتبعتها جورباتشوف والتي أحدثت نقلة نوعية من الاقتصاد المنغلق إلى اقتصاد السوق المفتوح دفعة واحدة, قد ساهم ذلك بشكل كبير في التعجيل بالانهيار.

رابعا : انهيار الاشتراكية

اجتمعت عدة عوامل لتفكيك المعسكر الشيوعي, و لعل من أبرزها كانت العوامل الذاتية الداخلية:

1-طبيعة الأنظمة الشيوعية الدكتاتورية القائمة على سيطرة طبقة العمال و الفالحين نظريا , و الأعضاء القياديين في الحزب الشيوعي عمليا, و التي منعت التعددية الحزبية و الحق في الاختلاف بنهجها سياسة الحزب الواحد, و قمع المبادرات الفردية, و الحريات الأساسية كالجمع و التعبير و المعتقد.

2-السياسة القمعية التي انتهجها الجيش الأحمر السوفييتي و حلف و ارسو للحيلولة دون تحقيق آمال شعوب المعسكر في الانفصال, و إقامة حكومات ديمقراطية منتخبة, و التي مورست في برلين بألمانيا الشرقية 1953, بودابست في المجر 1956, و براغ التشيكوسلوفاكية 1968..

3-دور المعسكر الغربي, في إطار الحرب الباردة, بتشجيع العناصر المناوئة للشيوعية والعمل على زعزعة أمن واستقرار دول الكتلة الشرقية باستخدام أنظمة وأجهزة التجسس, الدعاية المغرضة, والحصار الاقتصادي.

4-ظهور الزعيم السوفييتي ميخائيل غورباتشوف منذ عام 1985 بسياسته البيروسترويكا, و إعادة ترتيب البيت الجديد, التي أدت إلى انهيار المعسكر الشيوعي, و الذي دعا في المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي عام 1990 إلى ضرورة تبني الديمقراطية والتعددية الحزبية .

5-عجز الأنظمة ال شيوعية في المعسكر الشرقي على تحقيق الاكتفاء الذاتي الغذائي نتيجة إرهاب ميزانيتها بالتكاليف الباهظة من أجل التسلح والتسابق الفضائي.